المحاضرة الأولى:
التعريف بعبد القاهر الجرجاني مؤسس نظرية النظم

-نسبه:[1] هو أبو بكر بن عبد الرحمان، ولد بجرجان في خرسان والمعروفة بكثرة علمائها،تلقى علومه بها ولم يبرحها طوال حياته،حتى توفي سنة 471هـ في العصر العباسي الثالث.

كان فقيها على المذهب الشافعي ، متكلما على مذهب الأشعري 2، ، حيث طبّق الكثير من مبادئ الأشاعرة في الاجتهاد والجدل ومناقشة المفاهيم على مؤلفاته، وبدا ذلك في كتابيه "أسرار البلاغة"و"دلائل الإعجاز" اللّذين برزت شهرته من خلالهما، وأثبت فيهما مدى تمسكه بدينه، واعتزازه بالكتاب والسنة واعتبارهما قدوة كلّ مقتد.مهتما بالدراسات النحوية واللغوية والأدبية،وتفسير القرآن وبيان إعجازه .

تلقى علومه على يد محمد بن الحسين بن حمد بن الحسن بن عبد الوارث -وليس له أستاذ سواه [3] -عن خاله أبو علي الفارسي،عن أبي بكر السراج،عن المبرد،عن المازني،عن أبي الحسن الأخفش،عن سيبويه عن الخليل بن أحمد الفراهيدي،عن أبي عمرو بن العلاء،أما القاضي الجرجاني فلم يتتلمذ على يديه إطلاقا،وذلك للفارق الزمني الكبير بينهما،حيث توفي هذا الأخير سنة366هـ قاضيا آخر حياته خارج جرجان،وعبد القاهر توفي سنة471هـ كما أنه صرح باسم شيخه أبو الحسن محمد بن الحسين بن محمد بن عبد الوارث في مقدمة كتابه"المقتصد"[4]

مصادر ثقافته:لقد تنوعت المصادر التي أخذ منها عبد القاهر الجرجاني وتأثر بها، والتي عرفناها من خلال كتابيه :دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، حيث إنه نقل عن علماء كثر، سواء في علم النحو،أو البلاغة،أو النقد، أو الأدب، و من أبرز الذين أثروا في عبد القاهر القاضي عبد الجبار ، فالذي يقرأ كلام القاضي عبد الجبار عن الإعجاز في كتابه المغني يجزم بأن عبد الجبار هو المبتكر لنظرية النظم فمن كلامه "اعلم أن الفصاحة إنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ،ولا بد من الضم أن يكون لكل كلمة صفة وقد يجوز في هذا الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه وقد تكون بالموقع "[5]

---

[1]ينظر:ابن الأنباري:أبو البركات كمال الدين،نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تح:إبراهيم السامرائي،مكتبة المنار،الأردن،ط3، (1405،1985)ص264. السبكي:تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب،طبقات الشافعية الكبرى،تح:محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحاو،دار إحياء الكتب العربية،القاهرة،مصرج5ص149. القفطي:جمال الدين أبو الحسن علي ،إنباه الرواة على أنباه النحاة،تح:محمد أبو الفضل إبراهيم،دار الفكر العربي، القاهرة،مصر ج2ص188.

[2]الأشاعرة:فرقة كلامية إسلامية،تنسب لأبي الحسن الأشعري الذي خرج على المعتزلة،واعتمدت العقل وقدمته على النقل وجعلته وسيلة في محاججة خصومها لإثبات حقائق الدين،فما وافق منها عقل المتكلم قبله ، وما خالفه حرفه تأويلا أو عطله تفويضا.ينظر:فيصل قزار الجاسم،الأشاعرة في ميزان أهل السنة،الكويت،ط1(2007،1465)ص72

[3]ينظر :الزركلي،الأعلام،دار العلم للملايين،بيروت ،لبنان ط15، 2006ج6ص99

[4]ينظر:الجرجاني:عبد القاهر،المقتصد،تحقيق كاظم أبو المرجان،دار الرشيد،العراق1982،ص68

[5]ينظر:القاضي عبد الجبار،المغني في أبواب التوحيد والعدل تح:أمين الخولي،دار الكتب،مصر،1960 ج16 ص199.

في حين أننا نجد عبد القاهر يقول "فقد اتضح إذاً اتضاحاً لا يدع للشك مجالاً أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلمة مفردة، وأن الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة بمعنى التي تليها وما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ".6
كما أننا نراه يقول في تحديده للنظم "وأعلم أنه ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو"7.
كما يقول: "إنه لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك ".8
فواضحمابينكلامهما من اتصال واقتباس، ولقد استفاد عبد القاهر منه في قدح فكرة النظم في ذهنه،ولكن الغريب هو أن عبد القاهر يذكر آراء عبد الجبار دون التصريح باسمه، بل إنه جعله في موقف الخصم ،حتى قال الدكتور محمود شاكر في مقدمته على الدلائل:" إن عبد القاهر منذ بدأ في شق طريقه إلى هذا العلم الجديد الذي أسسه كان كل همه أن ينقض كلام القاضي في الفصاحة وأن يكشف فساد أقواله في مسألة اللفظ ".9
يقول عبد القاهر معرضاً بعبد الجبار:"قالوا إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة... تراهم في الجميع قد دفعوا إلى جعل المزية في معاني النحو وأحكامه من حيث لم يشعروا ذلك لأنه أمر ضروري لا يمكن الخروج منه"10.
ويمكننا أن نجمل العلماء الذين أخذ عنهم كالآتي:
سيبويه180هـ، أبوعلي الفارسي177هـ،الجاحظ255هـ،أبوالقاسم الآمدي370هـ،أبو العباس المبردهـ، ابن العباس ثعلب291هـ،المرزباني،ابن طباطبا،القاضي عبد الجبار،بشر بن المعتمر،ابن قتيبة،قدامة بن جعفر، أبو هلال العسكري وغيرهم ،كما يستشهد بأشعار كل من:أبو تمام231ه، والبحتري284هـ،والمتنبي354هـ،وابن الرومي283هـ ،
مؤلفاته:ويمكن تصنيفها كالآتي:
أ-الكتب النحوية:1-كتاب العوامل المائة،2-كتاب الجمل:وهو شرح لكتاب العوامل المائة،3-كتاب الإيجاز:وهو شرح مختصر لكتاب الإيضاح ،4-كتاب المغني:وهو شرح طويل لكتاب الإيضاح 5-كتاب المقتصد: وهو شرح متوسط لكتاب الإيضاح ،6-كتاب العمدة في التصريف
ب-كتب علوم القرآن:1-شرح الفاتحة،2-إعجاز القرآن الكبير: وهو شرح لكتاب إعجاز القرآن للواسطي،3-إعجاز القرآن الصغير:وهو شرح مختصر لكتابإعجاز القرآن للواسطي ،4-الرسالة الشافية
ج-كتب البلاغة :1-دلائل الإعجاز2-كتاب أسرار البلاغة
د-كتب أخرى:1-كتاب العروض2-كتاب المفتاح في الصرف

-حدود تأثير البيئة العامة لعصر الجرجاني وأبعاد التأثير

---

[6]عبد القاهر الجرجاني،دلائل الإعجاز ،تح: محمود محمد شاكر، ، مطبعة المدني ،مصر،ط3(1413،1992). ص46
[7]نفسه ص81
[8]نفسه ص55
[9]نفسه (هـ)
[10]نفسه ص395

ونتناول في هذا الجانب الهموم الفكرية التي سادت المرحلة التي تم فيها تأليف وإنتاج أفكاره البلاغية ،لنتبين طبيعة الردود التي قدمها عبد القاهر، وحول كونها أفعالا إنجازية حرة،أم ردود فعل مقيدة.

إن إيماننا بأن أي عملية تأصيلية ترتبط"بمعرفة ظروف النص الموضوعية ،ووضعية المتكلم ووضعية المخاطبين؛ففهم الخلفيات المعرفية والظروف التي شكلت النص أو الكلام ،مفاتيح هامة لإدراك المعاني التي يكتنفها النص"[11]

ولهذا، فإن ربط أي منتج فكري بسياق إنتاجه ضروري قصد الوصول إلى التأويل المناسب؛"حيث توضع مضمرات النسق الثقافي والمسلمات الإيديولوجية والمعتقدات موضع المساءلة والمراجعة والنقد،في ضوء قراءة تعتمد في منطلقاتها على استراتيجيات جديدة..بتحويل علاقة النص بالثقافة التي أنتجته إلى نتاج فكري وثقافي بعين الرصيد المعرفي للثقافة،ويعيد اكتشاف النص من زاوية أخرى"[12]

ولهذا فحتى تؤتي أي دراسة أكلها، ينبغي عليها أن تربط بسياق عصرها، باعتباره الممثل الوحيد للجانب المجتمعي في الخطاب، كما يقره الدرس اللغوي الحديث.فالقصدية لا تقتصر على الجانب الذاتي والنفسي، بل تتعداهما إلى الجانب المجتمعي؛ إذ"اللغة لا تنكشف من داخلها فحسب بل تنكشف أيضا في علاقتها بالمتكلم والمجتمع"[13]

تميّز القرن الخامس الهجري بنضج العلم والتأليف والإبداع، حيث تكاملت فيه شتى علوم العربية من نحوٍ وبلاغة وفقه ونقد وغيرها، وجمعت فيه كلّ دواوين الشعر، وألّفت فيه المعجمات ودوّنت المفردات.

كما برزت فيه طوائف مختلفة من متكلّمين و أشاعرة ومعتزلة، هؤلاء الذين عالجوا مختلف القضايا العلمية والأدبية والدينية بمنطق العقل والاجتهاد، معتمدين في ذلك على حرية الإدلاء بآرائهم وحق مناقشتها والدفاع عنها

لقد كان قدر عبد القاهر أن يترعرع في عصر اشتد فيه الصراع،وحمى الوطيس في قضايا الدين والدنيا. فكان بحق عصر الجدل والمناظرة،احتلت فيه قضية الدفاع عن القرآن الكريم مكانة عظمى، خاصة عند المتكلمين، مما جعل عبد القاهر يعتمد في كتبه على السجال والمحاورة، فهو يقدم الفروض ويحاول إثباتها ويذكر الدعاوى ويستميت في إبطالها

كما زخر عصر عبد القاهر بعديد الدراسات التي اعتنت بالخطاب القرآني،وكان منهم الباقلاني والخطابي والرماني والقاضي عبد الجبار وغيرهم،وكان لكل واحد رؤية خاصة ومذهب خاص:فمنهم من اتكأ على غيره فبسط فكرتهم وأضاف إليها وطورها ،ومنهم من انتقد غيره فعارض رأيهم ودحض حجتهم ،وأقام بديلا عن عنها ،أما عبد القاهر فقد اعتمد الاثنين فعارضهم في قضية الصرفة[14] وما يدور حولها، وبسط فكرتهم ونقحها وأضاف إليها وأنبتها نباتا حسنا.

---

[11]محمد مفتاح،المقصد والاستراتيجية،سلسلة بحوث ومناظرات،الدار البيضاء،المغرب1993،ص58

[12]عبد الفتاح أحمد يوسف،قراءة النص وسؤال الثقافة،عالم الكتب،الأردن2009ص13

[13]مصطفى ناصف،محاورات مع النثر العربي،سلسلة عالم المعرفة1997،ص12

[14]الصرفة.:مذهب مرتبط بإعجاز القرآن مفاده :أن الله صرف همم العرب عن معارضة القرآن.من القائلين بها:أبو إسحاق النظام وابن سنان الخفاجي،ومن الرافضين لها الخطابي وعبد القاهر الجرجاني.ينظر:الخطابي:أبو سليمان حمد بن محمد،بيان إعجاز القرآنضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن،تح:محمد خلف الله أحمد،محمد زغلول سلام،دار المعارف،مصرط3، 1974ص 22

لقد أراد عبد القاهر أن يتفاعل بإيجابية مع متطلبات عصره ،ولهذا فقد أراد أن "يؤسس... علما جديدا استدركه على من سبقه من الأئمة الذين كتبوا في البلاغة وإعجاز القرآن"[15]، فكان أساس بنائه نقض ما تبناه غيره "فعبد القاهر منذ بدأ في شق طريقه إلى هذا العلم الجديد الذي أسسه كان كل همه أن ينقض كلام القاضي في "الفصاحة" وأن يكشف عن فساد أقواله في مسألة اللفظ ،...بالمعنى المؤقت المحدد في كلامه في كتابه "المغني" دون المعنى المطلق للفظ من حيث هو لفظ ونطق لسان"[16]

ولهذا فإن **فهم عبد القاهر** ينبغي أن يكون مربوطا **بفهم القاضي عبد الجبار** ،إذ"إغفال هذه العلاقة يؤدي- أو قد أدى- إلى غلط فاحش في فهم مسألة اللفظ والمعنى عند عبد القاهر،فلا اللفظ فهم على حقيقته ...ولا المعنى عرف على حقيقته عنده"[17]

يقول عبد القاهر""واعلم أن القول الفاسد والرأي المدخول،إذا كان صدره عن قوم لهم نباهة،وصيت وعلو منزلة في أنواع من العلوم غير العلم الذي قالوا ذلك القول فيه، ثم وقع في الألسن فتداولتهونشرته، وفشا وظهر،وكثر الناقلون له والمشيدون بذكره،صار ترك النظر فيه سنة،والتقليد دينا، ورأيت الذين هم أهل ذلك العلم وخاصته والممارسون له،والذين هم خلقاء أن يعرفوا وجه الغلط والخطأفيه،كالأجانب الذين ليسوا من أهله ،في قبوله والعمل به والركون إليه،ووجدتهم قد أعطوه مقادتهم،وألانوا له جانبهم وأوهمهم النظر إلى منتهاه ومنتسبه،ثم اشتهاه وانتشاره وإطباق الجمع بعد الجمع عليه... وكم من خطأ ظاهر ورأي فاسد حظي بهذا السبب عند الناس حتى بوأوه أخص موضع من قلوبهم،ومنحوه المحبة الصادقة من نفوسهم، وعطفوا عليه عطف الأم على واحدها،وكم من داء دوي استحكم بهذه العلة، حتى أعيا علاجه وحتى بعل به الطبيب[18]

كما كانت أفكاره ردا على المعتزلة [19]وهو ما أفقد كتابه حسن التبويب والتقسيم بسبب عجلته،إذ يرجح محقق الكتاب "أن السر في العجلة التي صرفته عن التبويب والتقسيم والتصنيف وأوجبت أن يبنى الكتاب هذا البناء العجيب ،هو فيما أظن أن طائفة من المعتزلة من أهل العلم في بلدته جرجان وفي زمانه كان لهم شغف ولجاجة وشغب وجدال ومناظرة في مسألة إعجاز القرآن،واتكئوا في جدالهم على أقوال القاضي عبد الجبار التي جاءت في كتابه المغني"[20]

كما كان لرواج **مفهوم الصرفة** دور كبير في إذكاء أفكار عبد القاهر، ليقدم الدليل العلمي والبرهان العقلي ليبطل مفعولها،وهو ما ذهب إليه أحد الباحثين، إذ ربط تأليف عبد القاهر بالدواعي الدينية التي كانت سائدة في عصره فيقول"لا حظ عبد القاهر أن الصرفة لقيت بعض الرواج في عصره من مثل كلام محمد بن حزم الظاهري وابن سنان الخفاجي"[21]

أما **الواقع الثقافي** فلم يخرج عن طبيعة العصر كله ،حيث كان عصر انحطاط وتردي في العلم كانعكاس حتمي للجانب السياسي منه، حيث يقول عبد القاهر"ثم إنا وإن كنا في زمان

15ينظر:عبد القاهر القاهر الجرجاني،دلائل الإعجاز ، مقدمة المحقق أ

16ينظر:نفسه مقدمة المحقق هـ

17ينظر:ن م ،ن ص

18نفسه ص 465.464

19المعتزلة.يقول الخياط وهو أحد زعماء المعتزلة في القرن الثالث:وليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة:التوحيد العدل،والوعد والوعيد ،والمنزلة بين المنزلتين،والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،فإذا كملت فيه هذه الخصال فهو معتزلي."ينظر:الخياط المعتزلي:أبو الحسين عبد الرحيم،الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد،تح:تيبرج،مكتبة الدار العربية للكتاب بيروت(1413،1993)ص126

20ينظر:عبد القاهر القاهر الجرجاني،دلائل الإعجاز مقدمة المحقق هـ

21مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد العربي،دار الأندلس،بيروت ط1981،2، ، ص28

هو على ما هو عليه من إحالة الأمور عن جهاتها،وتحويل الأشياء عن حالاتها،ونقل النفوس عن طباعها،وقلب الخلائق المحمودة إلى أضدادها ،ودهر ليس للفضل وأهله لديه إلا الشر صرفا والغيظ بحتا،وإلا ما يدهش عقولهم ويسلبهم معقولهم ،حتى صار أعجز الناس رأيا عند الجميع،من كانت له همة في أن يستفيد علما ،أو يزداد فهما ،أو يكتسب فضلا أو يجعل له ذلك بحال شغلا"[22]

وقد وصل الأمر بعبد القاهر إلى أن ينظم هذه الأبيات:

كبر على العلم لا ترمنه ومل إلى الجهل ميل هائم

وعش حمارا تعش سعيدا فالسعيد في طالع البهائم[23]

إن كلام عبد القاهر هذا، سيكون أحد المسوغات لابتدائه كتابة الدلائل ببيان فضل العلم وأهله ،وهو الذي جر عليه تحمل عبء التأليف ليرد له الاعتبار حيث يقول"وإذا كان من حق الصديق عليك ،ولا سيما إذا تقادمت صحبته وصحت صداقته،أن لا تجفوه بأن تنكبك الأيام،وتضجرك النوائب،وتحرجك محن الزمان ،فتتناساه جملة،وتطويه طيا، فالعلم الذي هو صديق لا يحول عن العهد، ولا يدغل في الود،وصاحب لا يصح عليه النكث والغدر،ولا تظن به الخيانة والمكر أولى منك بذلك وأجدر وحقه عليك أكبر"[24]

وإذ أراد عبد القاهر تحمل هذا العبء فإنه قد جر عليه أمرين:

الأول:دحض آراء من سبقه في هذا المجال.

الثاني:محاولة إحياء البحث بطريقة علمية جديدة تحمل في طياتها أعباء الأمة كلها.

وحتي يوفق في عمله فقد اختار العديد من الطرق:

فدينيا: أبطل المفاهيم الزائفة ،وفند المعتقدات الباطلة.كالصرفة وغيرها.

ومنهجيا: اختار قضية النظم وأقام أصولها،وأحكم بناءها.

وأخلاقيا: اعتمد على الأمثلة المرتبطة بالأخلاق؛لتكون أساس الاقتداء،ومصدر الاهتداء.

[22]عبد القاهر القاهر الجرجاني،دلائل الإعجاز 33

[23]ينظر:السبكي،طبقات الشافعية الكبرى ج5ص150

[24]عبد القاهر القاهر الجرجاني،دلائل الإعجاز ص34.33